

بمناسبة ذكرى حافظ

شاعر النيل

بقلم الأديب أحمد عثمان عبد المجيد

سبيلها ، ولم يحاول أن يسلك بالأدب مسلك أكثر أدبائنا الذين جحدوا حق الوطن عليهم ، وتأثروا بطريقة الأدب العربي في فنونه التي خلت إلا قليلاً جداً من الشعر الوطني الذي يحدث عن آمال الشعوب ورغائبها .

لذلك لم يأل جهداً في تسجيل مآل الشرق من مفاخر ، غزبها حقبة من الزمن ، وما ينبعث لتحقيقه في إيمان ثابت ، وجهاد صادق من مآرب وغايات . ضارباً له الأمثال ليشد أزره ، ويصح عزيمته ، ويشير حفيظته ، ويزيد إيمانه بحقه ، واعتزازه بمجده ***

فتش في آثار حافظ كلها يأخذ ببصره هذا الطابع المجيد ، وتر أنه لم ينس الحديث عن مصر والشرق حتى في مدائحه ، ومراثيه ، لأنه لم يمدح ولم يرث إلا الغطارفة الذين عرفهم وعرفتهم مصر مجاهدين في سبيلها ، مخلصين في الذود عنها ، بل لم ينسه في خمرياته التي يستعيد الحديث عنها السمع والبصر واللب جميعاً ، ويأخذ بذمام الفكر فلا يدعه يجنح إلا إلى اللغو والخمر والقيان والندمان وما إليها .

لم يذهب حافظ في أدبه ذلك المذهب إلا متأثراً بمصريته الصميمة ، وما أفاده من صحابة الأحرار من كره للاستعمار وضيق بالذل ، وما لقيه من عناد الانجليز بالسودان وما منى به بعد من بؤس وشدة .

كل هذه العوامل قربت بينه وبين الشعب ، فأحس منه ضعف النفوس ، وتزايد الوحدة ، وتردد المستضعف ، وخوف الذليل ، وأراد الإصلاح ما استطاع فاتخذ سبيله ليرضى بسعيه عن نفسه ، ويكون كما قال : —

لعمرك ما أرقى لغير مصر ومالي دونها أبداً مرام وقوله :

انى لأحمل فى هواك صباية يامصر قد خرجت عن الأطواق لذلك لم يدع باباً من أبواب الجهاد إلا ولجه ، فكان له في سبيل الوطن والدين والأخلاق مواقف عز بها وبز ، وأقعد غيره عن أن يلحق به ويدانيه ، واصطنع في جميعها الجرأة والصراحة وخطها أحياناً بالتهكم اللاذع ، والسخرية المرة ، لتكون أبلغ في التأثير وأبقى في الآذان . واليك حديثه مع عادة اليابان مثلاً تر فيه كيف برز حافظ في هذا المضمار ، وجمع إلى سلامة

لولا أن الخطب في شاعر النيل هو خطب الشرق الذي كان الفقيد لساناً من ألسنته ، وعموداً من عمد نهضته ، وبطلاً من أبطال المحاماة عن حريمه ، والذود عن حقيقته ، وقائداً من قواده البسلاء الميامين ، وداعية فيه إلى الاخلاص في الجهاد ، والاحسان في البلاء ، ليظفر بحقه في الحياة والسلطان . لولا أن الفقيد كان ذلك الرجل ماجل الخطب فيه وما فدح وما كان لمثلى أن يجاوز طوره ، ويصطنع مالا يطيق ، ويدفع نفسه دفعاً في مزدهم الكرام الكاتبين عن حافظ شاعر النيل فيعرضها لشيء كثير من العنت والمشقة .

ومن أعجب العجب أن يرغب هذا القلم اللدن تلك السبيل برغم ما يتعاور حامله من تبدل القريحة ، وركود الذهن ، وأن يأسره ذكر شاعر النيل وحده فيتحدث عنه يوم مضى على وفاته الأربعون ، ثم العام ، وهاهوذا يتحدث عنه وقد تصرم العام الثانى على وفاته أمس .

وأعتقد أن حافظاً ممالك من نفسى إلا بما غلب عليه من إثارة الوطن وفدائه ، وغلب على شعره من الحماسة الوطنية والنزوع إلى الحرية ، والولوع بالاستقلال والسيادة . ولعل أقل مانجزى به حافظاً (رحمه الله) أن نكثر الحديث عنه ، وأن نقدمه إلى شعرائنا الذين آثروا أدب الصباية واللذة ، وجنحوا بالأدب عن أن يكون وسيلة من وسائل إلهاب الشعوب المستضعفة وإنهاضها للمطالبة بالحقوق والدفاع عن الزمار ، وظنوا أن تزويق الحديث وتليين المعارض والمقاطع ووصف الغايات ، وأسباب الترف من الأوليات التي يجب أن يعنى بها الأديب ، وأن يخلص لها الأدب .

لمثل هؤلاء يجب أن نقدم حافظاً مثلاً للأديب الذى عرف غاية الأدب السامية فجعل نتاجه الجم وقفاً عليها ، وجهاداً في

عار على ابن النيل سباق الوري مهما تقلب دهره أن يسبقا
فتدققوا أسداً وصونوا نيلكم فلكم أفاض عليكم وتدققا
فمن البلية أن تباع وتشترى مصر وما فيها وألا تنطلقا
تلك هي البلية البالغة ، والهوان الأكبر ، والفعلة المنكرة ،
فأحر رجال الغد المأمول أن يلموا الشعث ، ويرأبوا الصدع ،
ويسعوا الى خير هذا الوطن المسكين سعيًا ملاكه التضحية بالنفس
والتفدية بالعزير .

رجال الغد المأمول إن بلادكم تناشدكم بالله أن تتذكروا
فكونوا رجالاً عاملين أغرة وصونوا حمى أوطانكم تتحرروا
ويطالبوا الدستور لا تسكنوا ولا تبيتوا على بأس ولا تتضجروا
فما ضاع حق لم ينم عنه أهله ولا ناله في العالمين مقصر

لست أدري إذ أقرأ لحافظ هذا وكثيراً غيره فأرى دعوته
الى الثورة سافرة غير مقنعة ، وحفيظته على الاستعمار صريحة غير
منكتمة ، ماذا يكون منه لو أفسح له القانون قليلاً في الحرية ؟ وأى
شيء بعد هذا نرتقبه من مجاهد ، ونرجوه من حر . ؟

إن من يعرف صرامة القانون إذ ذاك وما رمى اليه المشترع
الانجليزى من كبت الشعور ، والتفريع والكيد للاحرار ، ليعتقد
أن حافظاً آثر عنت القانون ، وشدة ليقضى حاجة نفسه ، وحاجة
أُمته في ذلك الوقت العصيب الذى سعى فيه كثير من الخاصة الى
رجال الاستعمار مترلفين مؤثرين أنفسهم على الوطن .

فهذا يلوز بقصر الأمير ويدعو الى ظله الأرحب
وهذا يلوز بقصر السفير ويطلب في ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين على غير قصد ولا مأرب
لله درك ! يا حافظ ! لقد جاهدت والغمرات من حولك منكرا
والقوم مشغولون عنك بذات نفوسهم . فما فئت عزيمتك ولا وهى
صبرك ، ولادفعك ذلك الى اليأس إلا حين ترجو الالهاب والتهيج ،
فما أجمله ياساً يوقظ الشعور ويحفز الغافل الى المناداة بالحقوق

حطمت اليراع فلا تعجبي وعفت البيان فلا تعبي
فما أنت يامصر دار الأديب وما أنت بالبلد الطيب
وكم فيك يامصر من كاتب أقال اليراع ولم يكتب
فلا تعذلى لهذا السكوت فقد ضاق منك ما ضاق بي

الشعر وشرف المقصد دقة التصوير ، وسمو التصور : —
لا تلم كفى إذا السيف نبا صح منى العزم والدهر أبى
أنا لولا أن لى من أمتى ناذلا مابت أشكو النوبا
أمة قد فت في ساعدها بغضها الأهل وحب الغربا
وهى والاحداث تستهدفها تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالى لعب القوم بها أم بها صرف الليالى لعبا
ثم يمضى يصف تفریط أُمته . وعشقها الألقاب في غير العلا ،
وجهادها بالنفوس في سبيل الرتب ، وتباغضها وتحاسدها ، وما
الى ذلك مما يقعد بالمصلحين ، ويثبط هم المجاهدين الى أن يقول
مخاطباً عادة اليابان : —

قلت والآلام تفرى مهجتي ويك ما تصنع في الحرب الظبا
فسليني إننى مارسستها وركبت الهول فيها مركبا
وتقحمت الردى في غارة أسدل النقع عليها هيدبا
جال عزرائيل في أنحائها تحت ذاك النقع يمشى الهيدبى
فدعيها للذى يعرفها والزمى ياظبية البان الخبا
وهو بذلك الحديث كله يمهّد لما يريد أن يقدمه نصيحة
للشباب ويجعله مثيراً لهممهم ، باعثاً لهم من مراقدهم ، فأى شاب
يعرف للرجولة حقها يسمع حديث حافظ على لسان هذه الغادة
فيرضى أن يسيع المذلة ، ويقيم على الخسف الذى يراد به فيكون
أحد الأذلين ؟

فأجابتنى بصوت راعنى وأرتنى الظبى ليثاً أغلبا
إن قومى استعذبوا ورد الردى كيف تدعونى الا أشربا
أنا يابانية لا أثنى عن مرادى أو أذوق العطبا
أنا إن لم أحسن الرى ولم تستطع كفاى تقليب الظبا
أخدم الجرحى وأقضى حقهم وأواسى فى الوغى من نكبا
ولسنا فى حاجة الى أن نقول : إن حافظاً قد بلغ فى هذه
القصيدة مبلغاً من الاحسان يحسد عليه ، وأشرف بها على الغاية ،
وأجمعت كلماته من به صمم

ولم يزل يتبع الصيحة المدوية أخرى أشد وأعلى ليستقيم له
قياد النفوس . ويدفع الشباب المترف المنعم الذى سدر فى شهواته
وغلا فى مباهجه ، ونسى حق الوطن عليه - الى ما يجب أن يعمل
له ويشغل نفسه به فانه

شماس ، وأدبها ذلك الأدب الجميل وطالما أوضعت في اللهو وجنحت
الى الأثرة فجنت على الأمة ، هي التي تسعى اليوم غير وانية ، وتمضى
غير مترثثة ، لا يشغلها عن جهادها الشريف ما يُمنى لها من كيد ،
وما يراد بها من هون ، لقد علمها بالصراحة ، وعرض عليها شر
ما فيها من الخصال لتتوقاه ، وكان عليها حديد اللسان ان ترددت
حين العزم وتقاعست عند النابذة

حسبى هذه الصور البارة التي تدل دلالة واضحة على أن
حافظاً - أحسن الله جزاءه - كان شاعر الوطنية الثائرة ، لم
يقنع ثورته الخوف ، ولم يأسر قلمه التزلف والرياء ، ولم يخالف بين
قوله وفعله

وستظل هذه الناحية من شعر حافظ شغل الباحثين مادام
الحديث عنها يمتد ويمتد فلا يقوم بالأيفاء فيه الاطناب المطنب ،
وما دامت النفوس الألية تستروح برد الراحة في دراسة هذه الآثار
التي تحدث عن أشهى أمنية من أمانها ، وما دام - حافظ - نفسه
يأبى أن يحتفل بغير هذه الناحية ، ويقول ما معناه « إن من قضى
شبابه في الجيش ، ثم انغمس بعد تسريحه في شعر الوطنية ؛ هيهات
أن يجد متسعاً لما وراء ذلك » وأختم الكلام بعرض مختار من
إحدى قصائده في داهية دنشواي الدهياء ، وقد صاغها من
حسرات نفسه وآلام شعبه ، ورثى فيها العواطف الشريفة
- يقتلها حب الاستعمار في نفوس أهله - فجاءت طرازاً وحدها
في قوة التأثير وجمال النظم قال :

خفضوا جيشكم ، وناموا هنيئاً وابتغوا صيدكم ، وجوبوا البلاداً
واذا أعوزتكم ذات طوق بين تلك الربي فصيدوا العباداً
انما نحن والحمام سواء لم تغادر أطواقنا الأجياداً
لا تظنوا بنا العقوق ولكن أرشدونا إذا ضللنا الرشاداً
ثم يقف بعد من المستعمر موقف الخصم العنيد ، فلا يدع له
حجة ولا ينجيهِ من التثريب والملامة :

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أقصاصاً أردتم أم كيدا ؟
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أنفوساً أصبتم أم حمدا ؟
ليت شعري ألكل محكمة التف تيش عادت أم عهد نيرون عاداً ؟
كيف يحلو من القوى التشفى في ضعيف ألقى اليه القياداً ؟
ثم يمضى بعد ينفث حسراته وزفراته حتى ينتهي الى تقرير

أبعجنى منك يوم الوفاق سكوت الجهاد ، ولعب الصبي
وكم غضب الناس من قبلنا لسلب الحقوق ولم نغضب
غضب الناس لحقوقهم فاستردوها ، ونمنا نحن عن حقوقنا
وهي ملء الأرض ، وشغلنا عن مجدنا الدابر وهو ملء التاريخ ،
ورضينا بالدون من العيش قسماً وحظاً وقد

كناقلادة جيد الدهر فانفرطت وفي يمين العلا كنا رياحيناً
كانت منازلنا في العز شاخحة لا تشرق الشمس إلا في مغايننا
وكان أقصى منى نهر المجرة لو من مائه مزجت أقداح ساقينا
والشهب لو أنها كانت مسخرة لرجم من كان يبدو من أعادينا
فلم نزل وصروف الدهر ترمقنا شزراً وتخدعنا الدنيا وتلهينا
حتى غدونا ولا جاه ولا حسب ولا صديق ، ولا خل يواسينا
في هذه الأبيات وفي كثير غيرها يذكرنا حافظ بسلطان
الشرق وملكه ، وعلمه وفلسفته ، وأيامه الخالية ، ثم بعبوديته
وفقره المادى والأدبى ليعث من ألقى السمع الى النهوض ، وينبه
الغافل الكسل الى ماله من حقوق مسلوقة

وليس من شك في أن شاعرنا قد أدى بقصائده هذه ماوجب
عليه كمصرى صميم إن لم يكن زاد وأربى ، وأن الشعب قد أحس به
تذكر بنعمى عريضة تحولت أبوساً ، وعز باهر آض ذلاً . ولكن
نفسه الكبيرة ما كانت لترضى بهذه التضحية الحق ، فلولاً صرامة
القانون لأرتنا عجباً ، فثلها لا يقنع بما دون النجوم .

متى أرى النيل لا تصفو موارده لغير مرتقب لله مرتهب
فقد غدت مصر في حال اذا ذكرت جادت دموعى لها باللؤلؤ الرطب
إذا نطقت فقاع السجن متكئ وان سكت فان النفس لم تطب
وكما لم يحمد حافظ جهاده وبلاءه لم يحمد للشباب نهوضهم
المقدور ، وجهادهم المحدود ، وهو يريد هم أسوداً ضارية لا ترد عن
الغاية أو تبديد ، فألقى عليهم باللائمة وأغلظ لهم في القول ، وقرعهم
وتحدى رجولتهم فقال :

أنابته العصر إن الغريب مجد بمصر فلا تلعبى
يقولون في النشء خير لنا وللنشء شر من الأجنبي
أفى الأزبكية مشوى البنين وبين المساجد مشوى الأب
وكم ذا بمصر من المضحكات كما قال فيها أبو الطيب
هذه النابذة التي راضها حافظ على التضحية فارتاضت بعد

أبناء مصر الذين يتقاربون حرباً عليها ، ويكونون عوناً للمستعمر
على خضد شوكتها ؛ ويخلص من ذلك الى قوله وقد أنكر
تصرف هؤلاء الأعيان وزرى عليه :

لا جرى النيل في نواحيك يا مصر ولا جادك الحيا حيث جادا
أنت أنبت ذلك النبت يا مصر فأضحى عليك شوكا قتادا
أنت أنبت ناعقاً قام بالأمس فأدمى القلوب والأكبدا
إيه يا مدره القضاء ويا من ساد في غفلة الزمان وشادا
أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا

هذه الروح القوية التي استبانت فيما أوردنا من شواهد هي
التي صدر عنها حافظ في جهاده الوطني الذي صار من أجله شاعر
النيل غير مدافع ولا منازع .

وما زال - رحمه الله - يغذى الحركة الوطنية ،
ويشيد بها حتى ألقى عصاه بدار الكتب ، فصرم
بها زماناً لا ينشدنا إلا لماما .

وما كان للنفوس التي خالطها حبه ، وغذاها
أدبه ، وطبعت على أن تسمع صوته متصلاً لا ينقطع ،
أن تسكن الى تلك الحال ، وأن ترضى بذلك القليل
يأتيها منجماً في أوقات متباعدة .

فلما ترك - رحمه الله - المنصب محالاً الى
الراحة والدعة ، أملت خيراً واستشرقت وأنست
الى مقطوعاته التي كان ينظمها اليوم بعد اليوم ،
ولكن ماهي إلا جولة أو جولتان حتى رفع القلم ،
وطوى الأثر ، وودعنا حافظ

كان لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
أبي البؤس الذي ألح على حافظ حياته أن يدعه
بعد وفاته ، فكفرت الأمة بأياديه عليها ، ولم
تعرف لذكره حقها ، وكان أقل ما يجب عليها من
عاش حياته مجاهداً في سبيلها ، مسبحاً باسمها ،
أن تجعل يوم وفاته أحد أيامها الخالدات ، تهرع
فيه الى تمجيد ذكره وإعلاء قدره ، وأن تنشر

صحيفة جهاده للأدباء ليتأثروه فيه ويعملوا على شاكلته .
وليس هذا وحده هو كل ما أصاب حافظاً من بؤس بعد
وفاته ، فان خلصاءه الذين عاشروه ولا بسوه ولزمهم بذلك ما يجب
على الصديق للصديق ، قد نفضوا أيديهم مما تعاهدوا عليه إثر وفاته
 واجتمعوا من أجله ، وقد كان فيه قليل من كثير جداً يجب عليهم
لذلك الشاعر الصديق الذي أضحى حظه بين هؤلاء الصفوة الأنساء
أو النسيان وكلاهما شر .

وبعد ، فلك كلمة فيها إيجاز وقصور ، لم أرد فيها كشفاً عن
فضل مستور ، وبياناً لقدر منكور ، ولكني أردت أن أؤدي
لشاعر النيل بعض ما وجب على بالأخذ عنه ، والانتفاع بآثاره .
فإن أكن قد قاربت ما أردت فحسبي ، وإلا أكن فالمجهد يعذر ما
أحمد عثمانه عبد المجيد

اكتبوا بواسطة بنك مصر وفروعه في سندات

شركة مصر للغزل والنسيج

سندات لحاملها قيمة كل منها ٢٠ جنيهاً مصرياً

وفائدته ٥ ٪ من القيمة الاسمية

ينتهي الاكتتاب في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٤

ويقتل باب الاكتتاب متى وصل الى المبلغ المطلوب

وتكون الأولوية للمتقدمين في الطلبات